مصر والدعاية

للأستاذ سيد قطب

كان لنا صديق فكه ، وهبته الطبيعة الظرف والخفة ، تعويضا عن القبح والدمامة .

ذهب صاحبنا هذا الى مصور ، فزور له صورة جميلة وجيهة ، انفق فى تزويرها كل براعة التصوير . ثم عاد الينا بهذه الصورة يعرضها علينا فى اختيال وتفاخر ، ويقول فى زهو وكبرياء . هاكم صورتى ألست وجيها جميلا .

ونظرنا الى صاحبنا مرة ، والى صورته مرة ، ثم قهقهنا ساخرين ! ومضى يعجب منا : كيف لا نعترف له بالجمال والوجاهة وهذه صورته شاهدة على ما يقول !

* * *

كلما سمعت أن مصر أرصدت مبلغا معينا للدعاية لنفسها فى البلاد الأوربية الأمريكية أو خصصت مبلغا من المال لاستقدام فرقة موسيقية أو تمثيلية ، أو اعتمدت مبلغا ما لزيادة التمثيل السياسى أو القنصلى فى شتى الأنحاء ، أو تبرعت بمبلغ صغير أو كبير لإعانة المنكوبين ذكرت صاحبنا هذا الظريف الخفيف الذى شاء أن يقنعنا بجماله ووجاهته ، لأن صورته جميلة وجيهة ، و إن تكن "خلقته" أمامنا تنفى ما يثبت ، وتشهد بالقبح والدمامة !

ما الذى نريد أن نقوله فى الدعاية عند الأجانب !

أنقول لهم : إن بلادنا جميلة فتعالوا شاهدوها ؟

نعم ! إنها لجميلة ، وقد وهبتها الطبيعة أجمل عناصر الجمال . ولكن كل ما أخرجته يد الطبيعة فيها جميلا قد شوهته عوامل الإهمال !

هل فى العالم كله نهر أجمل من النيل ؟ يتحدثون عن الدانوب ، ويتحدثون عن الفولجا ويقول الذين شاهدوا هذا وذاك إن النيل أجمل منهما جميعا . ولكن أين هو النيل ؟ إنه مطمور منزو لا يطالع بوجهه إلا القليلين . ذلك أن "كورنيش" النيل لم ينشأ بعد ، فلا يزال النيل حبيسا فى مجراه لا يطل على أحد ، ولا يطل عليه أحد . ولا تزال القرى الكئيبة القذرة هى التى تطل على ضفتى النيل ، وتشوه أجمل منظر من مناظر الوجود .

وأين مرافىء النيل المنظمة ومحطاته النهريه الجميلة ، وسياحاته الليلية الفاتنة ؛ كتلك التى يتحدثون عنها فى الدانوب وفى الفولجا حيث يعرف الناس هناك قيمة أنهارهم المقدسة ، فيحيلوها متاعا وجمالا ، وارتزاقا واقتصادا .

ما الذى نريد أن نقوله فى الدعاية عند الأجانب .

أنقول لهم : إن بلادنا راقية فتعالوا شاهدوها .

نعم : إنها لعريقة . وقد حفظ لها التاريخ أسنى صفحات العراقة . ولكن أين هى الآن من ذلك التاريخ ؟ وماذا يشهد الأجانب فيها حين يجيئون .

يشهدون الفقر والمرض والجهل والقذارة كما لم يشهدوها عند أحد من خلق الله . يشهدون التفاوت بين الترف والحرمان ، و بين الغنى والفقر ، و بين الحضارة والهمجية ، كما لا يوجد فى شعب من الشعوب . يشهدون العربات الفاخرة ، والحفاء الذميم . يشهدون الأزياء الباريسية والعرى الشنيع . يشهدون الحفلات الساهرة ، والنائمين على الطوار . يشهدون القصور الفخمة ، ومقابر الأحياء . يشهدون الميادين الفسيحة والأزقة المنتنة . يشهدون الخروج المفتنة يروح بها أصحابها و يعدون ، تحت جدران المستشفيات الفخمة الخاصة بالأثرياء .

ما الذى نريد أن نقوله فى الدعاية ضد الأجانب .

نقول لهم : إن بلادنا نظيفة ، فتعالوا شاهدوها .

نعم : لقد كان المصريون أنظف الشعوب . منذ عهد سحيق . ولكن أين نحن الآن من ذلك الماضى ؟ وماذا يشهد الاجانب فيها حين يجيئون ؟

يشهدون الغبار الثائر فى كل مكان يعمى العيون و يتلف الآذان و يوسخ الملابس ، لأن وسائل الكنس لا تزال عند ما كانت قبل أجيال . يشهدون الذباب يغدو و يروح بين صناديق القمامة ووجوه الرائحين والغادين ، يجدون القطع الآدمية ذات القروح المفتوحة ، وهى تأخذ عليهم الطريق فى كل مكان ، يجدون الأطفال المشردين يجمعون أعقاب اللفافات ، و يسدون عليهم المنافذ فى كل مقهى وكل طريق .

ويخطر لنا فى بعض الأحيان ، أن نجمع الشحاذين وأن نقبض على المشردين كلا نؤذى بمنظرهم أعين الأجانب ! أجل بهذا الغرض وحده نصرح دون خجل ، كأن هؤلاء المكودين لا يستحقون العناية إلا لأنهم سوأة فى أعين الأجانب . وإنهم لسوأة . ولكن فى ضمير الإنسانية . و إنهم ليستحقون العناية هذه وتلك . ولكن العناية بهم لا تكون بجمعهم و إيوائهم . إنما تكون بعلاج النظام الاجتماعى الذى يقذف بهؤلاء وهؤلاء . إنهم بثور ودمامل تدل على معدة فاسدة ودم مفسود ولا تكفى لإزالتها المراهم والمسكنات ؟

قبل أن نقوم بأية دعاية لمصر فى الخارج بكل وسائل الدعاية المباشرة وغير المباشرة ، يجب أن نصلح مصر من الداخل ، و إلا أضفنا إلى نقائصنا فى أعين الأجانب ، نقيصة الكذب أيضا .

لقد كانت هذه الحرب كارثة على مصر . لا لأن يضع قنابل قد تساقطت عليها ، ولا لأن الغلاء قد اجتاح سكانها ؛ ولا لأن الملاريا قد فتكت بالكثيرين فيها ، ولا لأن الغذاء والكساء قد عزا على الفقراء ، ولا لطارئ واحد من هذه الطوارئ جميعا .

لقد كانت نكبة لأن آلافا وملايين من الجنود والموظفين الأجانب قد اجتازوا أرضها، وأقاموا فيها ، وأطلعوا على كل خباياها . فمحال أن نخدعهم بعد الآن بأية دعاية .

لقد التقطت مصوراتهم آلاف المناظر الزرية ، بعد ما التقطتها أعينهم وذاكراتهم . آلاف المناظر التى لا نظير لها فى أى بلد من البلاد . التقطوا مناظر الحفاة العراة ، ومناظر المرضى المشوهين ، ومناظر الأطفال المشردين ، ومناظر النائمين على الأفرزة وعلى أبواب المساجد. ومناظر الشحاذين وذوى العاهات ومناظر الأكواخ والأزقة. ومناظر الجالسين أمام صناديق القمامة يبحثون فيها عن لقمة مع الصراصير والقطط الضالة والكلاب .

فماذا نقول للأجانب بعد عودة هؤلاء جميعا ، و بعد إقامة معارضهم المصورة بآلاف المناظر التى جمعوها ؟ نقول لهم : هذا كله كذب ، ونحن الصادقون ؟ أم نقول لهم هذا كله صدق ونحن المزورون ؟ !

* * *

كنت أجلس مع صديق على مقهى، وجاء ضابط أمريكى ، فنفض المكان بعينه يبحث عن مائدة فوجد أفسح الموائد مائدتنا. فاستأذن فى أن يشاركنا إياها فأذنا وجلس... وتجاذب معه صاحبى الحديث .

قال : كم لك فى مصر ؟

قال له : ستة أشهر .

قال : لعلها أعجبتك ؟

ورد الضابط الأمريكى : لم أجد شعبا طيبا كهذا الشعب . تبدو طيبته فى معاملة الأجانب . تسأل عن الطريق فيتطوع غير واحد لإرشادك ، ولا يكتفى بالوصف المقتضب بل يسهب فى البيان . وقد يتطوع بعضهم فيرافقك إن وجد الوصف لا يكفى ... وهذه ظاهرة لا تراها فى غير هذا الشعب الطيب . فلو كنت فى أمريكا أو أوربا ما وجدت من يعنى بك عشر هذه العناية .

ثم سكت الأمريكى قليلا ، واستأنف الحديث :

ولكنى رأيت هنا ظاهرة لا نظير لها عندنا إطلاقا . رأيت التفاوت بين الطبقات بشكل غير معقول لا يمكن أن يقع نظرك — فى غير مصر — على هذا الرجل القذر المتسول — وأشار بيده — إلى جانب هذا الوجيه النازل من عربته الفخمة ! حقا لا أستطيع أن أفهم كيف يقبل هذا شعب من الشعوب ؟

وحسب صديق أنها فرصة سانحة للدعاية ضد الاستعمار ، فاندفع فى حماسة يعزو كل مايراه الضابط الأمريكى من نقص الى مساوئ الاستعمار .

وتركه الضابط يتم حديثه . ثم قال فى برود : اسمح لى أن أخالفك. الآدميون لا يقبلون هذا الوضع مهما يكن ضغط المستعمرين .

أجل؟ الآدميون لا يقبلون هذا الوضع مهما كانت الظروف، هذه هي الحقيقة الصارخة الأليمة فلنحاول أن نغيرها في الواقع ، قبل أن نقوم بالدعاية لمصر في عالم الآدميين ؟

إن العالم يتجدد ، والموجة التي تطغى عليه الآن هي موجة العدالة الاجتماعية . ومقياس الرقي والتقدم هو هـذا المقياس في جميع بلاد العالم . فكل دعاية لا تقوم على هـذا الأساس مقضي عليها بالفشل ولو بلغت أقصى حدود الاتقان ، ولو أرصدت لها أضخم الجهود والأموال .

وكل قرش ينفق في الدعاية ، يجب أن ينفق في تحقيق العـدالة الاجتماعية . خمسون ألف جنيه مثلا كافية لكسوة خمسين ألف عار وخمسين ألف حاف لمدة عام، واطعام خمسين ألف جائع لمدة شهر ، ومعالجة ألف مريض ، وانقاذ ألف مشرد ، وبناء خمسمائة دار .

وكل قرش نتبرع به لمنكوبي الشعوب : شرقية كانت أو غربية لنبدو في مظهر المتحضرين ولندعو لأنفسنا في العالمين... كل قرش نتبرع به يجب أن يناله مصري من هؤلاء المنكوبين. ليس في العالم كله جياع عراة منكوبون كالمصريين . وليس في العالم كله بيوت مهدمة ومدن مخربة . كبيوت المصريين وقبل أن نشترك في تعمير العالم ، وبنـاء المدن والميادين ، يجب أن نشترك في تعمير مصر وأكواخها ذات اللبن والطين .

كل قرش ينفق في الدعاية ، وكل قرش ينفق في التبرع ، وكل قرش ينفق في استدعاء الفرق الأجنبية ... يقابله في مصر جائع أو عار أو مشرد . وهؤلاء أولى بعطف المصريين ونقود المصريين . وكل دعوة باسم الانسانية ليتبرع المصريون لغير المصريين هي ضحكة على الذقون ، والاستجابة لها غفلة وجنون لأن المصريون أيضا ناس وآدميون .

وبعد أن نصبح في مستوى الآدميين . بعد أن تختفي القروح العفنـة من الطرقات ، والقطع الآدميـة المتناثرة في الشوارع ، والوجوه المغبرة الكالحة من المقاهي ، والأجسام المشوهة من الأفاريز .

وبعد أن نعمر الخراب ، ونستعيض عن الأكواخ بالبيوت . ونكفل المساكن للملايين الذين يسكنون البوص والطين .

وبعد أن نستغل مرافقنا الطبيعية ، ونجمل مناظرنا الأقليمية ، ونكشف وجه النيل للزائرين . بعد هذا كله لا قبله يجوز لنـا أن ندعو الضيوف ونحن مستعدون ؛ ويجوز لنـا أن نتبرع ونحن المتفضلون .

وإلا فلا لوم على صاحبنا الذي حاول أن يقنعنا بوجاهته وجماله عن طريق صورته المزورة ووجهه حاضر يشهد بالقبح والدمامة ! .

سيد قطب